مات النسر الكبير

كان قصر السلطان محمد الفاتح في الأيام الأولى من العشر الأخير لشهر نيسان من عام 1481م يموج بالحركة والنشاط... الوزراء والقواد يعقدون الاجتماعات مع السلطان ويقدمون له التقارير عن وضع الجيش وعن كمية ونوعية أسلحته وعن أعتدته وعن عدد الفرسان والمشاة في الجيش وعن أرزاقه وحاجاته...

كان من الواضح أن السلطان مقبل على حملة جديدة وكبيرة...

حملة جديدة يقودها بنفسه كما هو دأبه منذ عشرات السنين...

وفي يوم 25 نيسان من ذلك العام اجتاز السلطان مع جنده وقواده مضيق البسفور ووصل إلى "أسكدار" في الضفة المقابلة، أي انتقل إلى القسم الآسيوي من اسطنبول، وضرب خيامه في موقع بين (مالتبة) وبين (كبزة) الحاليتين، وهو الموقع الذي أطلق عليه فيما بعد اسم (سلطان جايري) أي (مرج السلطان).

بدأ السلطان هناك بوضع اللمسات الأخيرة في أمر حملته الكبيرة التي لم يكن أحد غيره يعرف وجهتها...

لم يكن السلطان يفصح عن وجهة حملته على الإطلاق ... كان تصرفه هذا اتباعا للسنة النبوية في موضوع السرايا والمغازي. وكان هذا دأبه طوال مدة حكمه الذي زاد عن ثلاثين سنة...

هذا الحكم الزاخر بالفتوحات الرائعة...

ولكن المؤرخين يخمنون أن وجهة هذه الحملة – التي لم تتم – كانت نحو إيطاليا...

لم تتم هذه الحملة لأن السلطان محمد الفاتح شعر في اليوم الثاني بمغص شديد في بطنه...مغص شديد ألزمه الفراش وجعله يتلوى من الألم...

كان طبيبه الخاص يعقوب باشا بجانبه... أنظار الصدر الأعظم مصوبة إليه ترجوه مساعدة السلطان بأدويته الناجعة وهو الطبيب المشهور بحذقه.

ولكن لم تنفعه الأدوية التي سقاها الطبيب إياه... بل ازدادت صحته سوءً...

وأخيرا وبعد بضعة أيام توفي السلطان محمد الفاتح...

كان عمره 49 سنة وشهرا وخمسة أيام...أما مدة حكمه فبلغت 31 سنة وشهرين وثمانية وعشرين يوما.

كان في أوج قوته ونشاطه... فكيف مات اذن فجأة وبهذه السرعة ودون أي مقدمات ومن مغص في بطنه ؟

تجمعت الشبهات حول طبيبه الخاص " يعقوب باشا"...

لم يكن هذا الطبيب مسلما منذ الولادة ... كان من إيطاليا ... من مدينة البندقية ...واسمه الأصلي (ماسترو لاكوب Maestro Lacop).

أشهر اسلامه بعد أن ادعى الاهتداء بعد قدومه إلى اسطنبول ... واتخذ اسم (يعقوب).

كان طبيبا حاذقا ... لذا سرعان ما ذاعت شهرته في اسطنبول، فاتخذه السلطان محمد الفاتح طبيبا خاصا له وأنعم عليه برتبة الباشوية.

سمع البنادقة بهذا الخبر فطاروا فرحا...

كانوا قد رتبوا قبل هذا التاريخ 14 محاولة لاغتيال السلطان محمد الفاتح... ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل.

والآن سنحت لهم فرصة ذهبية ... فرصة ذهبية يجب ألا تضيع منهم أبدا.

اتصلوا به سرا ووعدوه بمكافأة كبيرة ... كبيرة جدا... مكافأة بلغت بالنقد الحالي ما يقارب (17) مليون دولار!!.

كان الإقدام على محاولة اغتيال السلطان محاولة خطرة جدا ... ولكن المكافأة كانت كبيرة جدا فلم يستطع مقاومة اغرائها.

كان اغراء المال سببا مهما ... ولكنه لم يكن السبب الوحيد...

السبب الآخر المهم هو أن السلطان كان خطرا داهما على أوروبا المسيحية...

ألم يفتح هذا السلطان مدينة " القسطنطينية " التي كانت مركز المسيحية وعاصمة امبراطوريتها لمئات السنين؟

ألم يحول كنيسة " آيا صوفيا" إلى جامع؟

ألم يفتح المرفأ الجنوي " إنز" ؟

ألم يفتح بلاد الصرب وبلاد اليونان وموراوالبوسنة ؟

لذا لم يتردد طويلا ووافق على اغتيال السلطان...

قرر اغتياله بدس السم له تدريجيا ليبدو موته طبيعيا فيتخلص من الشبهات ومن القتل ... ثم يهرب في فرصة مناسبة ويقضي بقية عمره في بحبوحة من العيش ...

وهكذا كان ... فقد بدأ بدس السم له بشكل تدريجي... ولكن ما أن رأى أنه يستعد لحملة جديدة ضد أوروبا المسيحية حتى زاد من كمية السم الذي قضى على حياة السلطان محمد الفاتح.

ما أن انفضح دور هذا الطبيب القاتل الذي خان الأمانة وارتكب هذه الجريمة النكراء ضد سلطان أحسن إليه وأنعم علية برتبة كبيرة وأغرقه بالهدايا والعطايا وكان من المفروض أن يحرص على حياته ولا يغدر به هذا الغدر الشنيع...

ما أن انفضح دوره حتى تناوشته سيوف حرس السلطان بأمر من الصدر الأعظم فقتل بعد التأكد من خيانته ...

قُتل الطبيب الغادر ولم تسنح له الفرصة للاستفادة من المكافأة الكبيرة ...

أما البنادقة فلم يصلهم الخبر إلا بعد 16 يوما ...

جاء الخبر عن طريق رسالة بالبريد السياسي لسفارة البندقية في اسطنبول...

كانت الرسالة تحتوي جملة تاريخية واحدة فقط ... جملة :(لقد مات النسر الكبير)

وانتشر الخبر بسرعة ...انتشر أولا في مدينة البندقية، ثم في المدن الايطالية ، ثم في المدن الأوروبية الأخرى ... وبدأت الكنائس تدق أجراسها فرحة مستبشرة ... لقد مات النسر الكبير...

واستمرت الكنائس في أوروبا تدق أجراسها مدة ثلاثة أيام دون انقطاع بأمر من البابا...

أجل!...لقد مات النسر الكبير فلتفرح أوروبا ... ولتدق أجراس الكنائس.

رحمك الله أيها النسر الكبير الشهيد ... وجعل الفردوس مثواك.

أورخان محمد علي - أسطنبول